الباب التاسع والعشرون

أخلاق الصوفيّة وشرح الخلق

الصُّوفيةُ أوفرُ الناس حظًا من الاقتداء برسول الله ﷺ وأحقُهم بإحياءِ سنَّته، والتخلُّق بأخلاق رسول الله ﷺ من حسن الأقتداء به وإحياء سنته؛على ماأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام أبوأحمد عبد الوهاب بن على قال: أخبرنا أبو الفتح عبدالوهاب بن على قال: أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى، قال: أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن أحمد الترياقى قال: أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى قال: أخبرنا أبوعيسى محمد بن عيسى بن سِوْرةَ الترمذى قال: حدثنا مسلم بن حاتم الأنصارى البصرى قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصار، عن أبيه، عن على بن زيد، عن سعد بن المسيب قال: قال أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه، قال لى رسول الله ﷺ: «يا بنى إن قَدَرْتَ أن تُصبح وتُمسى وليس فى قلبك غشٌ لأحد فأفعل»، ثم قال: «يا بنىّ، ذلك من سنتى، ومن أحيا سُنَّتى فقد أحيانى، ومن أحيانى كان معى فى الجنة»[1].

فالصوفية أحيوا سنة رسول الله ﷺ، لأنهم وقفوا[2] فى بداياتهم لرعاية أقواله، وفى وسط حالهم اقتدوا بأعماله، فأثمر لهم ذلك فى نهاياتهم أن تحققوا بأخلاقه، وتحسين الأخلاق لا يتأتى إلا بعد تزكية النفس، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع، وقد قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3] لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسًا كان أحسنهم خلقًا. قال مجاهد (على خلق عظيم) أى: دين عظيم، والدين مجموع الأعمال الصالحة، والأخلاق الحسنة. سئلت عائشة–رضى الله تعالى عنها — عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن[4] . قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى وينتهى عمّا نهى الله عنه، وفى قول عائشة: كان خلقه القرآن، سرٌ كبيرٌ وعِلْمٌ غامض، ما نطقت بذلك إلا بما خصَّها الله تعالى به من بركة الوحى السماوى، وصُحبة رسول الله ﷺ وتخصيصه إيّاها بكلمة «خذوا شطر دينكم من هذه الحميراء»[5] وذلك

---

(١) الترمذى عن أنس بن مالك بأسناد .

(٢) وفى نسخة : وفقوا .

(٣) آية رقم ٤ من سورة القلم .

(٤) مسلم وأبو داود من حديث طويل فى قيام الليل عن عائشة .

(٥) قال ابن حجر : لا أعرف له إسنادًا ولا رأيته فى شئ من كتب الحديث المعتمدة .

أن النفس مجبولة على غرائز وطبائع هى من لوازمها وضرورتها، خُلِقَتْ من تراب ولها بحسب ذلك طبع، وخُلقت من ماءٍ ولها بحسب ذلك طبع، وهكذا من حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخّار، وبحسب تلك الأصول التى هى مبادئ تكوُّنها استفادت صفاتٍ من البهيمية، والسَّبُعية، والشيطانية، وإلى صفة الشيطانية فى الإنسان إشارةُ بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ صَلْصَال كَالْفَخَّار﴾[1] لدخول النار فى الفخّار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَار﴾[2] والله تعالى بخَفِىٍّ لطفه وعظيم عنايته نزع نصيبَ الشيطان من رسول الله ﷺ على ما ورد فى حديث حليمة ابنة الحارث، أنها قالت فى حديث طويل، فبينما نحن خلف بيوتنا ورسول الله ﷺ مع أخ له من الرضاعة فى بَهْم[3] لنا جاءنا أخوه يشتدّ، فقال: ذاك أخى القُرشىُّ قد جاءه رجلان عليهما ثياب بَياض، فاضجعاه، فشقّا بطنه، فخرجتُ أنا وأبوه نشتدّ نحوه، فنجده قائمًا منتقعًا لونه، فاعتنقه لونه، فاعتنقه أبوه، وقال: أى بنى، ما شأنك؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض، فاضجعانى، فشقا بطنى، ثم استخرجا منه شيئًا فطرحاه، ثم ردّاه كما كان، فرجعنا به معنا، فقال أبوه: ياحليمة، لقد خشيت أن يكون ابنى هذا قد أصيب، فانطلقى بنا فلنردّه إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوّف، قالت: فاحتملناه فلم تُرَعْ أمُّه إلاّ وقد قَدِمْنا به عليها، قالت: ما رَدَّكما وقد كنتما عليه خريصين؟! قلنا: لا والله، لاضَيْر، إلاّ أن الله عزّ وجلّ قد أدّ عنا وقضينا الذى كان علينا، وقلنا نَخْشَى الإتلاف والأحِداثَ: فنردّه إلى أهله. فقالت: ماذاك فاصدقانى شأنكما؟ فَلم تَدَعْنا حتى أخبرناها خبرَه، فقالت: خشيتُما عليه الشيطان، كلا، والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابنى هذا شأن، ألاأخبركما بخبره؟قلنا: بلى، قالت: حملتُ به، فما حملت حَمْلاً قطّ أخفّ منه: فأريت فى النوم حين حَملتُ به كأنَّه خرج منى نور أضاءت به قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعًا لم يقعه المولودُ معتمدًا على يديه رافعًا رأسه إلى السماء. فَدَعاه عنكما».

فبعد أن طهرّ الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حدّ نفوس البشر، لها ظهورٌ بصفات وأخلاق مُبَقّاةٌ على رسول الله ﷺ رحمةً للخلق، لوجود أمهّاتِ تلك الصفات فى نفوس الأمَّة بمزيدٍ من الظلمة، لتفاوت حال رسول الله ﷺ وحال الأمة، فاستمدت تلك الصفات المبقّاة بظهورها فى رسول الله ﷺ بتنزيل الآيات المحكمات بإزائها لقمعها، تأديبًا من الله لنبيه، رحمةً خاصةً له، وعامةً للأمة، موزّعة بنزول

---

(١) آية رقم ١٤ من سورة الرحمن.

(٢) آية رقم ١٥ من سورة الرحمن.

(٣) إلهم: أولاد البقر والمفرد الضآن.

الآيات على الآناء والأوقات عند ظهور الصفات، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيه الْقُرآنُ جُمْلةً وَاحِدةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[١]

وتثبيت الفؤاد بعد اضطرابه لحركة النفس بظهور الصفات؛ لإرتباطٍ بين القلب والنفس.

وعند كلّ اضطراب آية متضمنة لخلق سَنِيّ إمّا تصريحًا أو تعويضًا، كما تحركت النفسُ الشريفةُ النبوية لما كُسِرتْ رَبَاعيته وصار الدم يسيل على وجهه الشريف ورسول الله ﷺ يمسحه ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم» فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[٢] فاكتسى القلب النبوىّ لباس الاصطبار وفاء بعد الاضطراب إلى القرار، فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات فى مختلف الأوقات، صَفَت الأخلاق النبوية بالقرآن؛ ليكون خُلُقه القرآن، ويكون فى إبقاء تلك الصفات، فى نَفْس رسول الله ﷺ معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما أنسَّى لأسُنَّ»[٣].

فظهور صفات نفسه الشريفة، وقت استنزال الآيات؛ لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها، رحمةً فى حقّهم حتى تتزكّى نفوسُهم، وتَشرُفَ أخلاقهم.

- قال رسول الله ﷺ: «الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيرًا منحه منها خُلقًا» وقال ﷺ: « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٤]، وروى عنه ﷺ: «أن لله تعالى مائة وبضعة عشر خُلقا من آتاهُ واحدًا منها دخل الجنة»[٥] فتقديرها وتحديدها لا يكون إلا بوحى سماوى لمرسل ونبى.

والله تعالى ابرز إلى الخلق أسماءه مُنْبِئةً عن صفاته سبحانه وتعالى، وما أظهرها لهم إلاّ ليدعوهم إليها، ولولا أن الله تعالى أودع فى القوى البشرية التخلُّقَ بهذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوةً لهم إليها يختص برحمته من يشاء.

ولا يبعد - والله أعلم - أن قول عائشة رضى الله عنها: «كان خلقه القرآن» فيه رمزٌ غامض وإيماءٌ خفىّ إلى الأخلاق الربّانية، فاحتشمت[٦] من الحضرة الإلهية أن تقول: متخلّقًا بأخلاق الله تعالى، فعبرّت عن المعنى بقولها: كان خلقه القرآن استحياءً من سُبحات الجلال، وسترًا للحال بلطف المقال، وهذا من وفور علمها وكمال آدبها.

---

(١) آية رقم ٣٢ من سورة الفرقان

(٢) آية رقم ١٢٨ من سورة آل عمران

(٣) الموطأ بلاغا عن مالك

(٤) البخارى فى الأدب والحاكم من البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة بسند صحيح

(٥) الحكيم وأبو يعلى والبيهقى فى الشعب عن عثمان بن عفان بسند حسن

(٦) أى: استحيت

وبين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[١]

وبين قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] مناسبة مشعرة بقول عائشة رضى الله عنها: كان خلقه القرآن[٣].

قال الجنيد رحمه اله تعالى، :كان خلقه عظيمًا[٤]،لأنه لم يكن له هِمَّةٌ سوى الله تعالى

وقال الواسطى، رحمه الله تعالى: لأنه جاء بالكونين عوضًا عن الحق[٥].

وقيل : لأنه عليه الصلاة والسلام عاشر الخلق بخلقهن وباينهم بقلبه؛ وهذا ما قاله بعضهم فى معنى التصوف:

التصوف الخلق مع الخَلق ، والصِّدقُ مع الحق .

وقيل : عَظمُ خُلقه حيثُ صَغرت الأكوان فى عينه لمشاهدة مُكَوِّنها .

وقيل : سُمِّى خلقه عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه .

وقد ندب لرسول اللّه ﷺ أمته إلى حسن الخلق فى حديث أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين بن عبد الوهاب بن على قال :

أخبرنا أبو الفتح الهروى قال أخبرنا أبو نصر التريافى قال : أخبرنا أبو محمد الجراحى قال : أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال : أخبرنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال : حدثنا أحمد بن الحسين بن خراش قال : حدثنا حيّان بن هلال قال : حدثنا مبارك بن فُضالَة قال : حدثنى عبد اللّه بن سعيد ، عن محمد بن المنكدر عن جابر ، رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال :

«إنّ من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلسًا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيقهون» ..

قالوا : يا رسول اللّه علمنا الثرثارون . والمتشدقون ، فما المتفيقهون ؟؟ قال : «المتفيقهون المتكبرون»[٦]

---

(١) آية رقم ٨٧ من سورة الحجر

(٢) آية رقم ٤ من سورة القلم

(٣) حديث كان خلقه القرآن: أخرجه الإمام احمد فى مسنده، والإمام مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه عن عائشة رضى الله عنها.

(٤) وفى نسخة : سمى خلقه عظيما .

(٥) أى ترك الدنيا فى سبيل الله سبحانه وتعالى .

(٦) أخرجه البخارى عن ابن عمرو هو حديث صحيح ، ورواه الترمذى وقال حديث حسن .

والثرثار هو : المكثار يكثر من الحديث ، والمتشدّق : المتطاول على الناس فى الكلام .

قال الواسطى رحمه اللّه تعالى : الخُلق العظيم أن لا يخاصِم ولا يخاصَم . وقال أيضًا : وإن لعلى خلق عظيم لوجدانك حلاوة المطالعة على سرّك .

وقال أيضًا : لأن قبلتَ فنون ما أسديتُ إليك من نعمى أحسنَ مما قبله غيرك من الأنبياء والرسل .

وقال الحسين بن منصور الحلاج : لأنه لم يُؤثّر فيك جفاءُ الخلق مع مطالعة الحق .

وقيل : الخُلق العظيم لباس التقوى والتخلّقُ بأخلاق اللّه تعالى إذ لم يبق للأعواض عنده خطر .

وقال بعضهم : قوله تعالى : ﴿ولوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعضَ الأقَاويل لأخَذْنَا مِنْهُ بِالْيمين﴾[1] .

أتمُّ ، لأنه حيث قال : ﴿ وإنّك﴾ أحضره ، وإذا أحضره أغفله وحجبه ، وقوله : (لأخذنا) أتم ؛ لأن فيه فناء .

وفى قوله هذا القائل نظر ، فهلاّ قال : إن كان فى ذلك فناءٌ ففى قوله : (وإنك) بقاء ، وهو بقاء بعد فناء ، والبقاء أتمّ من الفناء ، وهذا أليق بمنصب الرسالة ؛ لأن الفناء إنّما عزَّ لمزاحمة وجودٍ مذموم ، فإذا نُزع المذمومُ من الوجود ، وتبدلت النعوت فأىّ عزّة تبقى فى الفناء ؟ فيكون حضُوره باللّه ، لا بنفسه ، وأى حَجْبة تبقى هنالك ؟

وقيل: من أوتى الخُلق فقد أوتى أعظم المقامات؛ لأن للمقامات ارتباطًا عامًا ، والخُلق ارتباط بالنعوت والصفات .

وقال الجنيد : اجتمع فيه أربعة أشياء : السخاءُ والألفةُ ، والنصيحةُ والشفقة .

وقال ابن عطاء : الخلُق العظيم أن لا يكون له اختيارٌ . ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء المألوفات .

وقال أبو سعيد القرشى : العظيم هو اللّه ، ومن أخلاقه : الجود ، والكرم ، والصفح ، والعفو ، والإحسان ، ألا ترى إلى قوله عليه السلام .

« إنّ للّه مائة وبضعة عشر خُلقًا من أوتى بواحد منها دخل الجنة »[2] .

فلما تخلّق بأخلاق اللّه تعالى وجد الثناء عليه بقوله : ﴿وَإنَّكَ لَعَلى خُلقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

---

(١) آية رقم ٤٥ من سورة الحاقة .

(٢) الحكيم الترمذى وغيره عن عثمان بن عفان بسند حسن .

وقيل : عظم خُلقك ؛ لأنك لم ترض بالأخلاق ، وسِرتَ ولم تسكن إلى النعوت حتى وصلت إلى الذات .وقيل : لمّا بعث محمد ﷺ إلى الحجاز حَجَزَه بها عن اللذّات والشهوات ، وألقاه فى الغُربة والجفوة ، فلما صفا بذلك من دنس الأخلاق ، قال له: ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيمٍ﴾.

أخبرنا الشيخ الصالح أبو زُرعة بن الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ ، عن أبيه قال: أخبرنا أبوعمر المليحى قال : أخبرنا أبومحمد عبدالله بن يوسف قال : أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابى قال : حدثنا جعفر بن الحجاج الرقّىّ قال: أخبرنا أيوب بن محمد الوزان قال : حدثنى الوليد قال : حدثنى ثابت ، عن يزيد ، عن الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن عروة عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان نبى الله ﷺ يقول :

مكارم الأخلاق عشرة تكون فى الرجل ولا تكون فى ابنه ، وتكون فى الابن ولا تكون فى أبيه ، وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة : صِدْقُ الحديث ، وصدق البأس ، وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان وإعطاء السائل والمكافأة بالصنائع ، وحفظ الأمانة ، وصلة الرحم والتذمم[1] للصاحب ، وإقراء الضيف . ورأسهنّ الحياء[2] .

وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، قال ﷺ: (تقوى الله. وحسن الخلق) وسئل عن أكثر ما يُدخِل الناس النارُ ، فقال ﷺ : (الغمّ والفَرَح)[3] . [يكون هذا الغم غمَّ فوات الحظوظ العاجلة ؛ لأن ذلك يتضمن التسخّط والتضجر ، وفيه الاعتراض على الله تعالى ، وعدمُ الرضا بالقضاء ، ويكون الفرحُ المشار إليه الفرحُ بالحظوظ العاجلة الممنوعُ منه بقوله تعالى :﴿ لِكَيْلاَ تأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ وهو الفرح الذى قال الله تعالى : ﴿إذْ قَالَ لَقَوْمِهِ لاَ تَفْرح إنَّ اللَّه لاَ يُحِبُّ الْفَرِحينَ﴾ لما رأى مفاتِحَه تنوء بالعصبة أولى القوة .

فأما الفرح بالأقسام الأخروية فمحمود يُنافس فيه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ بِفضْلِ اللَّه وبِرَحْمَتِه فَبذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[4]][5]

---

(١) حفظ العهد .

(٢) الحكيم والبيهقى فى الشعب عن عائشة بسند ضعيف .

(٣) الترمذى وقال صحيح غريب جـ ٣ ص ٢٤٥ ووراه عن أبى هريرة .

(٤) الآية من سورة يونس رقم ٥٨.

(٥) ما بين القوسين ساقط فى بعض النسخ

obeikandl.com

وفسرَّ عبدالله بن المبارك حُسن الخلق فقال: هو بَسطُ الوجه، وبذلُ المعروف، وكفُّ الأذى.

فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق. وكم من نفس تُجيب إلى الأعمال ولا تُجيب إلى الأخلاق؛ فنفوس العُبَّاد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهّاد أجبت إلى بعض الأخلاق دون بعض ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها.

أخبرنا الشيخ أبو زُرعة، إجازة عن أبى بكر بن خلف، إجازة، عن السُلمى قال: سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول: سمعت أبا بكر الكنانىَ يقول: التصَوف خُلُق، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوّف[1].

فالعُبَّاد أجابت نفوسهم إلى الأعمال؛ لأنهم يسلكون بنور الإسلام، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان، والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان، فلما باشر بواطنَ أهل القرب والصوفيةِ نُورُ اليقين، وتأصّل فى بواطنهم ذلك انصلح القلبُ بكلّ أرجائه وجوانبه، لأن القلب يَبْيَضُّ بعضُه بنور الإسلام، وبعضه بنور الإيمان، وكله بنور الإحسان واليقين.

فإذا ابيض القلب وتنورّ انعكس نورُه على النفس، وللقلب وجه إلى النفس ووجهٌ إلى الروح، وللنفس وجه إلى القلب، ووجه إلى الطبع والغريزة، والقلبُ إذا لم يبيض كلُّه لم يتوجّه إلى الروح بكلّه، ويكون ذا وجهين:

وجه إلى الروح، ووجه إلى النفس، فإذا ابيضّ كلّه توجّه إلى الروح بكله، فيتداركه مدد الروح، ويزداد إشراقًا وتنورًا وكلما انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب، وكلما انجذبت توجّهت إلى القلب بوجهها الذى يليه، وتتنورّ النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذى يلى القلب، وعلامة تنوّرها طمأنينتها قال تعالى:

﴿يـأيتها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إلى ربِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[2]

وتُنورُ وجهها الذى يلى القلب بمثابة نورانية أحَدِ وجهى الصَّدف؛ لاكتساب النورانية من اللؤلؤ.

وبقاء شىء من الظلمة على النفس لنسبة وجهها الذى يلى الغريزة والطبع كبقاء ظاهر الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالف لنورانية باطنة.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية.

(٢) آية رقم ٢٨ من سورة الفجر.

وإذا تنوّر أحد وجهى النفس لجأت[١] إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت، ولذلك سُمى الأبدال أبدالاً.

والسرُّ الأكبر فى ذلك أن قلب الصوفىّ بدوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقى إلى ذكر الذات، ويصير حينئذ بمثابة العرش، فالعرش قلب الكائنات فى عالم الخَلْق والحكمة، والقلب عرشٌ فى عالم الأمر والقدرة.

قال سهل بن عبد الله التسترى : «القلب كالعرش، والصدر كالكرسىّ» .

وقد ورد عن الله تعالى: « ما يسعنى أرضى ولا سمائى ويسعنى قلب عبدى المؤمن»[٢].

فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات وصار بحرًا مَوَّاجًا من نَسَمات القرب جرى فى جداول أخلاق النفس صَفاءُ النعوت والصفات، وتحقق التخلق بأخلاق الله تعالى.

حكى عن الشيخ أبى علىَ الفارمزىّ أنه حكى عن شيخه أبى القاسم الكُركانىّ أنه قال : «إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافًا للعبد للسالك، وهو بَعْدُ فى السلوك غيرُ واصل». ويكون الشيخُ غَنَى بهذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفًا يلائم ضَعف حال البشر وقصوره؛ مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى «الرحيم» مَعنى من الرحمة على قدر قصور البشر، وكلّ إشارات المشايخ فى الأسماء والصفات التى هى أعَزُّ علومهم على هذا المعنى والتفسير. وكلّ من توهمّ بذلك شيئًا من الحلول تزندّق وألحد.

وقد أوصى رسول الله ﷺ مُعاذًا بوصيّة جامعة لمحاسن الأخلاق فقال له :

« يا مُعاذ، أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجوار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، ونَصْرِ الأمل، ولُزوم الإيمان، والتفقّه فى القرآن، وحُبِّ الآخرة، والجزع من الحساب، وخفضِ الجناح، وإياك أن تَسُبَّ حليمًا، أو تُكذّب صادقًا، أو تطيع آثمًا، أو تَعصِى إمامًا عادلاً، أو تفسد أرضًا، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومَدَر[٣]، وأن تُحدِثْ لكل ذنب توبةً، السرُّ بالسرُّ والعلانية بالعلانية، بذلك أدّب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب»[٤].

---

(١) وفى نسخة : تجيب .

(٢) ذكره فى الأحياء بلفظ قال الله تعالى [لم يسعنى سمائى ولا أرضى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع] قال العراقى فى تخرجه: لم أر له أصلاً، ووافقه فى الدرر تبعًا للزركشى.

وقال فى المقاصد تبعًا لشيخه فى اللآلى: ليس له إسناد معروف عن النبى ﷺ ومعناه : [وسع قلبه الإيمان بى ومحبتى ومعرفتى] وإلا فمن قال:إن الله يحل فى قلوب الناس فهو أكفر من النصارى الذين خصوا ذلك بالمسيح وحده .

(٣) المَدَر (بفتح الميم والدال) : التراب المتلبّد ، أو الطين المقطّع .

(٤) رواه عبد بن حميد فى تفسيره وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن أبى ذر، وقال السيوطى: حسن .

وروى معاذ أيضًا عن رسول الله ﷺ قال :

«حُفَّ الإسلامُ بمكارم الأخلاق ومحاسنِ الآداب».

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علىّ، بإسناده المتقدّم إلى الترمذىّ[1]، رحمه الله تعالى، قال: أخبرنا أبو كريب، قال: حدثنا قبيصةُ بن الليث، عن مُطَّرف، عن عطاء، عن أمّ الدرداء، عن أبى الدرداء قال، سمعت النبى ﷺ يقول:

«ما من شىء يُوضع فىا الميزان أثقلُ من حسن الخلق، وإنَّ صاحبَ حُسنْ الخلق ليبلغ به درجةَ صاحب الصوم والصلاة»[2].

وقد كان من أخلاق رسول ﷺ أنه كان أسخى الناس؛ لا يبيتُ عنده دينارٌ ولا درهم وإن فَضَل ولم يجد من يُعطيه ويأتيه الليلُ لايأوى إلى منزله حتى يبرأ منه، ولا ينالُ من الدنيا، أكثر قوتَ عَامِه من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع ماعدًا ذلك فى سبيل الله، لا يُسأل شيئًا إلاّيُعطى، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه حتى ربمّا احتاج قبل انقضاء العام، وكان يخصف[3] النعل ويُرقّع الثوبَ، ويخدم فى مهنة[4] أهله، ويقطع اللحم معهنّ، وكان أشدَّ الناس حياءً وأكثرهم تواضعًا، فصلوات الرحمن عليه، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

---

(١) هو الإمام محمد بن عيسى بن سَوْرة السُلمى الترمذى. من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ (وترمذ مدينة مشهورة) من أمهات المدن على نهر جيحون من جانبه الشرقى. قال فى القاموس: ترمذ كإثمد بلد ببخارى) ولد سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م وتوفى سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م قام برحلة فى خراسان والعراق والحجاز، وعمى فى آخر عمره، قال ابن حبّان فى كتاب «الثقات»: كان الترمذى ممن جمع وصنف وحفظ . وقال أبو سعيد عبد الرحمن الإدريسى: (كان الترمذى أحد الأئمة الذين يقتدى بهم فى الحديث، صنف الجامع وكان يضرب به المثل فى الحفظ).

وكان موته بـ«ترمذ» ومن مصنفاته: كتاب الجامع ويسمى بالسنن، كتاب «العلل»، كتاب «شمائل النبى ﷺ».

(أنظر فى ترجمته : أنساب السمعانى ٩٥ ونكت الهميان ص ٢٦٤ ووفيات الأعيان) .

(٢) الترمذى جـ٣ ص ٢٤٥ وقال حديث غريب من هذا الوجه وأبو داود .

(٣) الخصف: خرز النعل وخياطته .

(٤) المهنة بالكسر : الخدمة .